

## المدرک الحسی

بقلم

الدكتور زکی نجیب محمود

مدرس الفلسفة بكلية الآداب — جامعة فؤاد الأول

١ — إذا استطعت أن تقرر على وجه الدقة ما طبيعة مدركاتك الحسية على اختلاف صنوفها ، استطعت بالتالي أن تحسم القول في مشكلة من أعقد المشكلات التي شغل بها الفلاسفة واهتم بأمرها علماء النفس على السواء ؛ وعلى طريقة شرحك لتلك المدركات يتوقف مذهبك الفكري كله ... فهذه برتقالة — مثلا — أدركها لونا وطعما ورائحة ولسا ، فإذا عساها في حقيقة أمرها أن تكون ؟ ما طبيعة هذا الذي أدركه ؟ أجب عن هذا السؤال تر نفسك قد أجبت عن أسئلة كبرى منها : ما طبيعة المادة ؟ بل ما طبيعة هذا العالم الخارجي بأسره ؟ وإن أنت أجبت على نحو ما ، سلكت نفسك في هذا المذهب الفلسفي ، أو أنت أجبت على نحو آخر ، فسلكت نفسك في ذلك المذهب الآخر ؛ وإنما تختلف المذاهب الفلسفية اختلافا قريبا أو بعيدا بمقدار ما تختلف في تحديد المدرك الحسي وطبيعته .

٢ — وتستطيع أن تمطنن بالا ، فليس في عزمنا أن ندور بك على تلك المذاهب المختلفة كلها ، لنقول لك إن هذه البرتقالة التي تدركها بجواسك ، هي في رأى المذهب الفلاني كذا ، وفي رأى المذهب الآخر هكذا ؛ بل سنشق بك الطريق مختصرة « قصيرة » إلى الرأى الذي نعتقد أنه الصواب .

فالرأى الصواب عندنا في حقيقة البرتقالة وغير البرتقالة مما يعج به الكون من « أشياء » هو ما يقرره الواقع كما تحكم به الحواس لا أكثر من ذلك ولا أقل ؛ فلنا نتردد لحظة واحدة في صم آذاننا عن كل لفظة تقال ولا يكون لها عند الحواس مدلول ! فلئن كانت حواسي تدرك من البرتقالة لونا وطعما ورائحة ولمسا ، كانت هذه الصفات في مجموعها وفي طريقة تركيبها هي البرتقالة ، ولا شيء وراء ذلك . ولرمز إلى هذه المجموعة من الصفات بالرمز اب ج د ... فلا يتحتم أن

أدرك اب ج د دفعة واحدة لأقول إني أدركت برتقالة ، بل إني لم أدركها ولن أدركها دفعة واحدة قط ؛ وإنما أدركتها فرادى ، ثم ارتبطت هذه الأفراد ارتباطا جعل منها « برتقالة » فإذا ما أدركت في لحظة ما « ا » وحدها ( ولتكن اللون مثلا ) دارت في رأسي عملية استدلال سريعة ، استدلت بها ضرورة أن تكون سائر الصفات ب ، ج ، د ممكنة الإدراك لو تهيأت لها الأسباب ، فإذا كانت « ب » - مثلا - رمزا لطعم البرتقالة ، كنت بمثابة من يقرر قضية شرطية ويقول : إذا وضعت هذا الشيء الذي أدرك لونه الآن ، على لساني ، أحسست الطعم الفلاني ... وبالطبع قد أخطيء في هذا الاستدلال ، فأضع ما ظننته برتقالة على لساني وإذا بها قطعة من الحجر .

٣ - البرتقالة - إذن - ( وكل شيء في الوجود ) هي مجموعة صفاتها ، أو إن

شئت فقل إنها مجموعة معطياتها الحسية ، أو إن شئت مرة ثانية فقل إنها مجموعة من حوادث ، ولا شيء وراء حوادثها العابرة ... لكن اللغة تخدعنا خداعا لا ينتهي مداه ؛ وفي محاولة التغلب على خداع التركيب اللغوي تركز مجهودات طائفة كبيرة من الفلاسفة المعاصرين الذين ينعنون « مذهبه » باسم « الوضعية المنطقية » وإنما وضعت كلمة « مذهب » بين أقواس ، لأن الوضعيين المنطقيين لا مذهب لهم ، ولا يريدون أن يكون لهم مذهب ، بل لا يريدون لأى فيلسوف في الدنيا أن يكون ذا مذهب ؛ فالمذاهب التي هي وصف لما في الكون إنما تقع على كاهل العلماء وحدهم ، كل عالم يصف الكون من ناحيته بالأساليب التي يرضاها العلم الوضعي ؛ وأما الفيلسوف فمهمته تحليل اللغة التي يستخدمها هؤلاء تحليلا يزيل عنها جوانب خداعها . فمن ضروب الخداع اللغوي في الموضوع الذي نحن بصدده ، أننا نستخدم صيغة المضاف والمضاف إليه ، فنقول : لون البرتقالة ، طعم البرتقالة ، رائحة البرتقالة وهلم جرا ، فتتوهم عندئذ أن البرتقالة شيء غير لونها وطعمها ورائحتها ، لأن هذه الصفات كلها مضافة إلى شيء آخر هو البرتقالة نفسها ؛ ومصدر الوهم هنا هو تركيب العبارة اللغوية .

ولنعد إلى رموزنا التي أسلفناها ، فالبرتقالة قد رمزنا لها بالحروف اب ج د ( ا لونها ، ب طعمها ، ج رائحتها ، د ملمسها ) وإذا أردنا أن نضع عبارة « لون البرتقالة » في صورتها الرمزية ، كانت هكذا ا ( اب ج د ) ومن هذه الصورة الرمزية يتضح في جلاء أن « ا » لا تزال جزءا من صميم البرتقالة ، على الرغم من تكرار وضعها خارج الأقواس ؛ فلا نستطيع أن نقول إن البرتقالة شيء غير

لونها ، لأن لونها كما ترى جزء منها ، وإتما خدعتنا اللغة بتركيبها .  
 ٤ - ونستطيع ها هنا أن نحكم برأى فى كل فلسفة تقول بوجود « الشئ » فى ذاته « ... فهناك فلسفات لا يقنعها من البرتقالة ما تدركه الحواس منها ، فذلك عندها قليل ، ولا بد أن نضع إلى جانب مدركات الحواس « برتقالة فى ذاتها » هى التى توصف بما توصف به البرتقالة من لون وطعم ورائحة ولس .  
 ورأى الوضعيين المنطقيين فى مثل هذه المزاعم مختصر قوى واضح ، فقل ما شئت من ألفاظ ، على أن تكون مستعدا لبيان مدلولات ألفاظك هذه التى تقولها ، أما إن قلت لفظة ثم عجزت عن بيان مدلولها ، كانت لفظة فارغة لا بد من حذفها غير آسفين . وعلى هذا الأساس يمكن سؤال الرجل الذى يقول لنا إن وراء صفات البرتقالة الظاهرة « حقيقة » خافية ، هى « البرتقالة فى ذاتها » - يمكن سؤال هذا الرجل بقولنا : بين لنا مدلول هذه اللفظة ، كيف أدركه ؟ ولست أحسب أنه سيجد الجواب عند الحواس .

لكنه سيسهل عليه أن يقول : هذا شئ « أستدله » بالعقل ولا ضرورة هنا لإدراك الحواس ؛ ألت تعلم أن علماء الفلك قد رأوا نبتون يتحرك حركات لم يستطيعوا تعليلها إلا بفرضهم وجود جرم سماوى آخر لم يكونوا قد رأوه بعد ، وأطلقوا على هذا الجرم السماوى المفروض اسم « اورانوس » ؟ فلماذا تجيز لعلماء الفلك أن يستدلوا بعقولهم جرما لم يكونوا قد رأوه بعد بحواسهم ، ولا تجيز لنا أن نستدل بوجود « البرتقالة فى ذاتها » من ظواهر البرتقالة ، حتى ولو لم تستطع الحواس أن تدرك تلك البرتقالة الحقيقية الخافية ؟

وجوابنا على ذلك بسيط وهام ، وهو أنك إذا فرضت وجود شئ ثم تبين أن العالم لا تتغير صورته إذا ثبت فرضك أو إذا أخطأ ، فالفرض « لغو باطل لا معنى له » ؛ فإذا قلت لى - مثلا - إن وراء هذا الستار رجلا مختبئا ، كان قولك ذا معنى ، لأن العالم تتغير صورته إذا صدق قولك عنه إن كذب ... لكن ما الذى يتغير فى العالم إطلاقا إن صدق أو كذب افتراضنا بأن وراء ظواهر البرتقالة « برتقالة فى ذاتها »؟ إن البرتقالة ستظل فى إدراكك لها هى هى سواء صح الغرض أو أخطأ ، إذن فليس هو بالغرض المقبول إطلاقا ، بل ليس هو بالكلام إطلاقا ، إنما هو ضرب من ضروب الخداع اللغوى التى ينبه لها الوضعيون المنطقيون ، فلا تحسبن أن كل عبارة لغوية تكون ذات معنى مقبول منطقيًا إذا كان تركيبها اللفظي مقبولا عند النحويين .

٥ - الشيء هو مجموعة معطياته الحسية ، هو مجموعة آثارها على الحس ، لا فرق في ذلك بين صفات ثانوية وأخرى أولية ، ولا فرق بين عرض وجوهر ؛ فاجمع معطيات الحس حزمة واحدة تكن لك طبيعة الشيء الذى تدركه ، ولا حقيقة له وراء ذلك ؛ معطياتنا الحسية هى الأول والآخر والظاهر والباطن !

لكن مهلا ! ماذا أنت قائل فى خداع الحواس ؟ أليست الحواس ترى العصا مكسورة فى الماء وما هى كذلك فى حقيقتها ؟ هذا ما يسارع بقوله أعداء الحواس ؛ ورد اعتراضهم هو أهون الهينات ؛ فالعصا مكسورة فعلا عند النظر وهى فى الماء ، مستقيمة عند اللمس ؛ فإذا سئلت ما حقيقة العصا ؟ وجب أن تقول إن حقيقتها عندئذ هى أنها مكسورة فى الرؤية مستقيمة فى اللمس ، لأن ذلك هو الواقع ؛ وما خدعتك عينك حين أدركت العصا مكسورة فى الماء ، لأن الموجات الضوئية المنبعثة من العصا عندئذ هى كذلك، وإنما تخدع العين لو رأيت العصا مستقيمة فى الماء رغم الأثر الذى يطبعه الواقع كما هو .

ولو رأيت العصا مكسورة فى الماء ثم استنتجت أنها ستكون منحنية كذلك عند اللمس ، فالحطأ هنا فى الاستدلال لا فى الإحساس ؛ لأنك أخطأت حين ظننت أن الرؤية واللمس لا بد أن يتفقا مهما يكن وضع العصا .

إذا رأيت القرش مستديرا من موضع يبضاويا من موضع آخر ، فلا تقل مع بعض القائلين : ترى ما حقيقة شكل القرش الثابتة وراء هذه الظواهر المختلفة ، لأن حقيقة القرش هى هذه الظواهر المختلفة نفسها ، حقيقة القرش هى مجموعة معطياته الحسية ، ولو كان للقرش ألف ألف ظاهرة مختلفة من مواضع مختلفة فحقيقته هى هذه الآلاف كلها مجتمعة ، ما دامت هذه الآلاف المختلفة كلها هى القرش فى الواقع ؛ إنه لا ضير عليك إذا سئلت : ما حقيقة شكل القرش ؟ أن تسأل بدورك : من أى موضع ؟ لأنه مع اختلاف الموضع يختلف الشكل ومن المكابرة الحمقاء أن أغمض عيني عن الواقع لأصف شيئا آخر ليس له وجود .

٦ - نعود فنكرر ما أردنا تقريره ، وهو أن المدرك الحسى هو مجموعة معطياته ، وليس لنا الحق فى افتراض وجود « شىء » بذاته يكمن وراء تلك المعطيات ؛ وكأما يسلمنا هذا القول إلى غرض أهم النظريات السائدة اليوم عن الإدراك الحسى ، التى أراد بها أصحابها أن يخففوا بعض الشيء من حدة هذه الواقعية المتطرفة التى بسطنا خلاصتها فيما سلف ؛ فأصحاب هذه النظريات التى سنذكرها لك الآن قد هالمهم أن يقال إن المعطيات الحسية هى نفسها المدارك الحسى دون أن يكون

هنا لك « شىء » بيعها ؟ أو إن شئت فقل إن « الشىء » لم يعد سوى نسيج من الصفات كما تقع في الحواس ! هالهم أن يقال هذا وأرادوا أن يتقنوا « شىئية » المدرک الحسى من هذا الإسراف .

وأولى هذه النظريات نظرية دعا إليها « وايتهد » وأطلق عليها « نظرية الأوضاع المتعددة (The theory of multiple location) وموجزها هو أننا يجب أن نفرق بين الخصائص التي تميز شيئاً ما من موضع معين وبين الخصائص التي تميزه بغض النظر عن موضعه : فقد تضع قرشا في موضع معين بحيث يبدو لك من ذلك الموضع يضاويا ويبدو كأنما هو أصغر حجما من ذات المليمين ؛ لكن القرش بغض النظر عن موضعه ذاك ، أو أى موضع آخر معين ، دائرى وأكبر حجما من ذات المليمين ! ومعنى ذلك أن « القرش في ذاته » هو هكذا وليس كما بدا من موضعه الأول ... يقول « وايتهد » مامعناه : نعم إننا لا ننكر أن القرش من الموضع الأول هو يضاوى فعلا وصغير الحجم فعلا ، لأنه ليس لدينا ما يبرر إنكار حقيقة ما تدركه الحواس عندئذ ، إننا لا ننكر ذلك ، لكننا نضيف إليه أن « القرش في ذاته » وبغض النظر عن أوضاعه دائرى وذو حجم معين ، والعلم حين يتناول الشىء بالوصف إنما يعنيه الشىء في هذه الحالة الثانية التي لا تركز على وضع معين في تحديد صورة الشىء . فما يبدو للحواس من صفات الشىء وهو في شتى الأوضاع حقيقى وواقع لكنه ليس هو ما يعنى به العلم حين يتناول الشىء بالوصف ؛ وإنما يهتم العلم بصفات أخرى ثابتة لا تتغير بتغير الأوضاع .

وفي رأينا أن « وايتهد » قد أخطأ هنا خطأين : الأول هو أنه لم يلتزم حدود الملاحظة الصرفة كما ينبغي لأى عالم أن يفعل ! فالملاحظة التي لا تتحذب ولا تتعصب ولا تعرف الهوى تقرر أن القرش في موضع ما يضاوى وفي موضع آخر دائرى ، وإذن فالشكلاان في حكم النظر سواء ، وليس لنا أن نقول عن أحد الشكلين دون الآخر إنه يصف القرش في حقيقته ! ولعل ما دفع « وايتهد » إلى هذا الخطأ هو احتفاظه بالفكرة التقليدية التي لا سند لها عند الملاحظة الدقيقة ، وهي أن هنالك « شيئا في ذاته » له حقيقة ثابتة غير هذه الظواهر المتغيرة ... ولكن حذار أن يفهم القارىء من ذلك أنى لا أفرق أبدا بين شكلى القرش الدائرى واليضاوى ، لأن هنالك فرقا ندركه بحاسة أخرى هي حاسة اللمس ، فالقرش عند اللمس دائرى دائما ، وإذن فلنا أن نقول إن دائرية القرش أبدى من يضاويته ، لا على أساس أن « القرش في ذاته » دائرى ، فليس هناك « شىء في ذاته » وراء

معطياته الحسية كما قلنا ، بل على أساس اشتراك حاسة اللمس مع حاسة النظر في إدراك هذه الدائرية أحيانا ، على حين أن اللمس لا يدركه بوضاويها أبدا ؛ وإذن فنحن قد ثبت للقرش دائريته دون أن نخرج من نطاق معطياتنا الحسية التي ندركها ، في مجاهر « الشيء في ذاته » .

والخطأ الثانى الذى أخطأه « وايتهد » هو أنه قال كلاما أطلق عليه « نظرية » وليس هو. في حكم المنطق بنظرية على الإطلاق ؛ لأننا نعيد ما أسلفناه من أن الكلام لا يكون « نظرية » إلا إذا كان هناك فرق في العالم بين صدق هذا الكلام وكذبه ؛ عندئذ يكون في مستطاعتنا أن نثبت أو ندحض هذه « النظرية » ؛ أما إن كنا لا نستطيع قط أن نتصور اختلافا في إدراكنا للأشياء بين حالتى صدق الكلام الذى يقال لنا وكذبه ، فنحن حقنا أن نرفض رفضا قاطعا أن يوصف لنا مثل هذا الكلام بأنه « نظرية » .

وانظر إلى ما يقوله « وايتهد » من أن « القرش في ذاته » بغض النظر عن أوضاعه المختلفة وبغض النظر عن إدراك الحواس له ، دائرى في حقيقته ، وأسأل نفسك : ترى كيف تكون حالة القرش لو كان هذا الكلام صحيحا ، ثم كيف تكون حالته لو كان هذا الكلام خطأ ؟ ولا أحسبك مستطيعا أن تجيب ؛ فإدراكاتنا للقرش لن تتغير ، صدق هذا القول أو كذب ؛ وإذن « فالنظرية » المزعومة ليست « نظرية » على الإطلاق ، بل ليست قولاً على الإطلاق ، لأن القول شرطه أن يخبرنا بشيء ، والخبر شرطه احتمال أن يصدق أو يكذب ؛ وليس يتحقق هذا الشرط فيما نحن الآن بصدده .

٧- وبودى لو أسعفى المجال ، إذن لعرضت على القارئ نظريتين آخرين سائدتين في الفلسفة الانجليزية المعاصرة ، وهما نظرية « الأشياء المركبة » *The Theory of Compound Things* التى قال بها « س . اسكندر » ونظرية الظهور « *The Theory of appearing* » التى ذهب إليها « مور » ... لكن القارئ يستطيع أن يرجع إليهما في أصولهما إذا شاء<sup>(١)</sup> ! وعلى كل حال فقد كنا سننتهى به بعد نقد هاتين النظريتين إلى النتيجة التى أثبتناها في هذا المقال .

زكى نجيب محمود

(١) Alexander, S., "Space, Time and Deity". Moore, G.E., *Philosophical Studies*